٧ ـ قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

اسپلنزانى Spallanzani

صلة حديثه

« القس الماكر الذى مالق الكنيسة والسلطات وهو يحتقرها جميعاً لكى يعيش ولكى يعمل فى سكون ؟ الذى ناضل نضال الجند بغير أهبة الجند وعدة الجند ؟ الذى أثبت من مرق اللحم أن المكروبات كـكل الأحياء لابد لها من آباء ؟ الذى أهدى للعلم مثانته الوبيئة ، ذلك الأثر الوحيد الذى بقى للناس إلى اليوم من هذا الرجل الكبير الخالد »

وجرت مكاتبات كثيرة بين اسپلنزانى وبين الكثير من بحاث أوروبا وشاكيها . وجرت صداقة بالبريد بينه وبين ڤلتير Voltaire ذلك الماكر الخبيث ، وشكا له فى كتبه أن إيطاليا ليس بها إلا أفذاذ قليلون من الرجال ذوى العقول الراجحة ، وشكا له الطقس والرطوبة والضباب . ودار الزمن فاذا اسپلنزانى يتزعم تلك العصابة الرعناء من الفلاسفة والعلماء الذين طلبوا الحق صادقين وأرادوا للناس السعادة والعدل مخلصين ، فاذا بهم يمهدون غير قاصدين لفتن هوجاء ، تلطخ بها وجه الأرض بأغزر الدماء

واعتقد هؤلاء العلماء أن اسپلنزانى قضى كل القضاء على تلك الفرية التى افتراها الخصماء حيث قالوا إن الحياة قد تنبعث من لا شئ ، وأخذ هؤلاء العلماء ، وفى طليعتهم « ڤلتير » ، يقهقهون بالنكات النادرة ، ويتندرون بالفكاهات المستملحة ، على القوة النباتيـة وعلى « بيفون » الفخم الطنان ، وعلى صبى معمله الأبله « نيدم »

وبينما هم على هذا ، صاح نيدم : « ولكن هذه القوة النباتية موجودة ياقوم . إنها شئ مستتر خفى . حقاً إنها لا تُرى ولا توزن ، ولكن بسببها تخرج الحياة من مرق اللحم ونقيع الحب ، وقد تخرج بواسطتها من لاشئ . من الجائز أنها احتملت ذلك التحميص الشديد الذى أولاها إياه اسپلنزانى . إنها قوة أكثر ما تحتاج اليه مرونة الهواء ، وقد أغلى اسپلنزانى قبابته ساعة فأفسد مرونة [1] الهواء بداخلها ، ففسدت القوة النباتية فلم تتكون الأحياء »

سمع الطليانى بهذا فقام توّاً للصراع . ونادى نيدم : « هل من تجارب تثبت بها أن الهواء إذا سخن قلّت مرونته ؟ » . وانتظر التجارب فلم يجب نيدم بغير ألفاظ . فصاح به الطليانى : « إذن فأنا آتيك بالتجارب » . ورجع إلى معمله مرة أخرى فوضع البذر فى القوارير ، وصفها وأغلاها ساعة . وفى ذات صباح ذهب اليها يقصف رقابهـا . قصف الأولى وأرهف سمعه فسمع لها صفيراً . « ماهذا ؟ » . واختطف الثانية فأدناها من أذنه وكسرها فسمع لها صفيراً . « هذا هو الصفير يعود ! ومعنى هذا أن الهواء يدخل إلى القارورة أو أنه يخرج منها » . وأشعل شمعة وأدناها من فم قارورة أخرى وفض فاها فاذا اللهب ينعطف نحوها . فصاح : « معنى هذا أن الهواء يدخل القارورة ، ومعنى هذا أن الهواء بالقارورة أقل مرونة من الهواء خارجها ، ومعنى هذا أن نيدم قد يكون على حق ! »

وعندئذ أحس اسپلنزانى بجيشان فى معدته ، وأحس بالرق يتصبب من جبينه ، وبالأرض تدور به . . . . أيجوز أن يكون هذا الأبله نيدم قد خبطها خبطةً عشواء فأصابت ؟ أيكون قد تظنّن فيما تُحدث الحرارة فى الهواء المخزون بداخل الزجاج المختوم فوقع على الحقيقة وهو لايدريها ؟ أيكون قد قُدِّر لهذا الفيهق الثرثار اللفاظ الهرّاء أن يفسد عليه الجهد الكبير الذى أنفقه فى استنباط الحقائق فى حرص وحذر كل هذه السنوات الطويلة ؟ وقضى اسپلنزانى أياماً وهو سقيم المزاج ، مشتت الفكر ، ضيق الصدر ، واشتد لتلاميذه واخشوشن من بعد رفق ولين . وأراد أن يروّح عن نفسه فأخذ ينشد شعر «دانتى» و «هوميروس» ، فلم يزده الانشاد إلا ضيقاً . واستيقظ فى نفسه شيطان أخذ يوسوس له : « قم وادرس لمَ يدخل الهواء داخل القبابة كلما كسرتَ ختمها ، فلعل هذا لاصلة له بمرونة الهواء» . وصاحبه هذا الوسواس الخناس وألحّ عليه حتى استيقظ ذات ليلة على صوته مخبولاً مرتبكاً .... وفى برهة كلمحة البصر وقع على تفسير

(١) لعله قصد بمرونة الهواء ضغطه

تعلو فى السائل ثم تهبط ، وهى تظل تتكاثر فيه أياماً . ألا ترى فى هذا عجبا ! ألم نقل دائماً أنه ما من حىّ يستطيع العيش من دون هذا الهواء »

كان اسپلنزانى مُعجباً بقوة خياله ، معجباً بسرعة خاطره ، وزاد إعجاباً بنفسه ، وزاده غروراً إعجاب طلبته ، ومَلَق الأوانس والغوانى ، وإطراءُ الأساتذة العلماء ، وتقريب الملوك الفاتحين . ولكنه كان الى جانب خياله يتعشق التجربة ، بل هو يقضى حقوق التجربة أولاً ثم يخال بعد ذلك ، فان هى عارضت خاطرة بديعة من خياله الخصيب فسرعان ما كان يقر بالحق ، وينزع عن خواطره مهما يانعت من الأبداع

وفى هذه الأثناء كان هذا الرجل الأمين ، الغالى فى أمانته فى كل مايتعلق بتجاربه ، هذا الرجل الذى كان لايخط قلمُه إلا الحق الذى يجده بين روائحه الكريهة وأبخرته السامة وأدوات معمله اللامعة ، هذا العالم الجليل الأمين ، نعم أعيد فأقول الأمين ، كان يتدنىّ الى الحيلة الخسيسة ليزيد مرتبه فى جامعة پاڤيا . هذا الرجل الشديد ، لاعب الكرة ، الكشّاف ، متسلق الجبال ، يأتى الى عاصمة النمسا متخاذلاً متواعكاً متأوهاً متوجعاً ، يشكو الى رجال الحكم فيها سوء صحته ، ويقول إن ضباب پاڤيا وأبخرتها تكاد تقتله . وأراد الامبراطور أن يستبقيه فزاد أجره وضاعف إجازاته . وتحدّث اسپلنزانى عن هذه الواقعة فضحك وساها فى خبث مداورة سياسية . هذا الرجل كان يصل الى الغاية التى يريد فلايقف شىء فى سبيله . يريد الحقيقة فينالها بالتجربة البارعة والملاحظة القريبة والصبر المضنى ، ويريد المال والترف فيناله بالعمل الشاق وأحياناً بالحيلة والكذب ، ويريد أن يتقى ظلم الكنيسة واستبدادها فينال ذلك بدخوله قسيساً فيها

ولما كَبِر وطالت به السنون تشهى الى تجارب غير تجاربه معمله ، تجارب صخّابة عنيفة يطلق فيها القياد لنفسه وحسه ، فاعتزم أن يزور موقع طروادة القديمة لأن قصتها كانت تهزه هزاً ؛ واعتزم أن يزور الشرق بحريه وأرقائه وخصيانه ، فقد كان يعتبر هذه الأمور جميعاً جزءاً من التاريخ الطبيعى كوطاويطه وضفادعه والحيوانات الصغيرة التى ينقيع بذوره . وشغل الشفاعات ، وأعمل المحسوبية ، واتصل ورجا ، حتى أعطاه الأمبراطور إجازة عام ، وأعطاه نفقة السفر الى القسطنطينية ، كل ذلك لاستعادة صحته واسترداد عافيته ، وعلم الله ما كان أحسن صحته وأتم عافيته

وقام اسپلنزانى فاختزن قباباته ، وأغلق معمله ، وودع تلاميذه وداعاً حاراً استطاع أن يذرى فيه ما تيسر من الدمع . وركب البحر الأبيض فاعتوره دواره وآذاه إيذاء شديدا ، وارتطمت سفينته بالصخر وتحطّمت ، ولكنه استطاع أن ينجو وأن يُنجى ما كان قد جمعه من بعض جزائر البحر ، وجاء السلطان فأولم له وسقاه وأكرم وفادته ، وأذن له أطباء السراى فى دراسة عادات السراى الجميلة . . . . . وبعد كل هذا قال للأتراك ، وهو الرجل الأوربى الطيب — رجل القرن الثامن عشر — قال لهم إنه يعجب بكرمهم ، ويعجب بعماراتهم ، وما تضمنته من الفن الجميل ، ولكنه بهت استرقاقهم للجوارى والعبيد ، وبهت استسلامهم للأقدار والأقسام . فكنت تخاله يقول لصديقه الشرق ، والشرق رجل جامد ، تقوم حوله الدنيا وهو قاعد ، وتجرى عليه الأيام وهو مركوم ، وتنبو عنه الحوادث وهو ملموم ، كنت تخاله يقول له : « نحن الغربيين سنفتح بعلمنا الجديد هذا من الأمور مالا يفتح ، ونجتاز به مالا يرجى اجتيازه ، وسنمحو عن الانسان وبنى الانسان هذا العذاب الأبدى والشقاء السرمدى الذى يئست الدهور من محوه » . كان اسپلنزانى يؤمن بالله ، ويؤمن بقدرته وجبروته ، ولكنه كان بحّاثاً نقاباً طلاباً للحقائق فكانت تغلبه غيرة الباحث وروح المنقّب على كل ما يقوله ، وتسيطر على كل ما يفكر فيه ، حتى ينسى الله ، وحتى ليعتذر عنه آناً فيسميه الطبيعة ، وآناء أخرى فيسميه المجهول ، وحتى دفعته الى أن يُنصِّب نفسه شِبْه وكيل أول لله ، يفتتح وإياه مجاهل هذه الطبيعة الغامضة ويكشف أسرارها

وبعد أشهر عديدة قضاها فى الشرق عاد أدراجه ، لا عن طريق البحر هذه المرة ، بل عن طريق البلقان ، وأنفذت معه الحكومات من الجند أصوبهم رماية ، وأولم له أشراف البلغار وأمراء الأفلاق . وأخيرا دخل ڤينا عاصمة الامبراطورية وذهب الى الامبراطور يوسف الثانى ، صاحب نعمته وراعيه ، ليقضى واجب الشكر ويقدم فرائض الاحترام . وكانت هذه الساعة أفخم ساعات حياته ، وأملؤها بالمجد ، ذلك المجد الذى يعطيه الملوك والأمراء . وأسكرته خمرة تلك الساعة ، وذهب دبيبها الى رأسه ، ومشت سورتها الى أعماق نفسه ، فكنت تسمعه يقول : « ما أحلى تحقق الأحلام » . ولكن . . . .

(يتبع)

احمد زكى